اتجـــاه وناقـد :

التفسير النفسي للإبداع الأدبي

و

محمد خلف الله أحمد

دراسة بقلم
الدكتور محمد حماد البنا
المدرس بقسم الأدب والنقد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدخـــل :

إذا كانت لعملية الإبداعية تقوم على محاور تلاثة أساسية ، الفنان(المنتج) والفن (المنتج) والإنسان (المتلقى) فالإبداع على ذلك ليس مجرد عمل عشوائى أو نزوة عاطفية ، أو صدفة حسنة ، كما أنه ليس إلهاما من وادى عبقر كما قالت بذلك الأساطير العربية ، وليس جزءا من الوحى كما زعم ذلك بعض الشعراء الرومانسيين .

الإبداع عملية منظمة تخرج من داخل النفس الإنسانية مضمخة بعبق البكورة ، ومطرزة بأنداء الربيع لتخاطب الوجدان الإنسانى وذلك عبر أداء فنى يتفاوت من مبدع إلى مبدع ، ومن فنان إلى فنان .

ومن هنا تتحدد مهمة الفن ومهمة الفنان فى المجتمع الذى يعيش فيه ، بل وفى المجتمعات اللاحقة تبعا لقيمة عطائه . وإمكانية بقائه أو تراجعه .

وحينما ننظر بتأمل إلى تعريف « تولستوى » لطبيعة الفن ندرك أبعاد العملية الإبداعية فماذا يقول هذا المفكر الروسى الشهير ؟ « يمر الفنان بتجربة تثير فى نفسه شعورا معينا ، ثم يعبر عن هذا الشعور إما بالحركات أو الأصوات أو الألوان أو الكلمات .. فالفن نشاط إنسانى وجدانى يعبر عنه الفنان تعبيرا واعيا بوسائل خارجية . وهو بهذا يوصل أحاسيسه التى عاشها وجربها إلى القارىء (يقصد المتلقى بوجه عام) الذى يتأثر بها بدوره فيحس بإحساسه » . وهذه النظرية التى عبر عنها «تولستوى» قريبة جدا من نظرية الشاعر الإنجليزى (وردز ورث) التى يقول فيها : « يصدر الشعر عن الانفعال العاطفى المستعاد فى حالة الهدوء ، فالانفعال يستعاد فى حالة الهدوء ، حتى تختفى هذه الحالة ويحل مكانها انفعال واع هو الانفعال المبدع الخلاق الذى يوصل به الفنان أحاسيسه

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

إلى القارىء » . ومن هنا نرى أن نظرية تولستوى تشبه نظرية وردز ورث فى الشعر فى إن كلا منهما يرى أن الفن هو عملية توصيل أحاسيس إلى القارىء، وقد وصف وردز ورث الشاعر فقال : « إنه إنسان يتحدث عن إخوانه فى الإنسانية فيسمع صدى كلامه فى نفوسهم »(١) .

وبعيداً عن الاستطراد لاستقصاء ماجاء حول الإبداع الفنى نقول : إن النقاد العرب ظلوا إلى أمد قريب لايهتمون بتحديد العلاقة بين المحاور الثلاثة (الفن والفنان والمتلقى) إلى أمـد بدأ الانفتاح الـكلى على الثقافة الغربية ، والتلمذة على مناهجها ، وطرق البحث العربية إبان ازدهار الحضارة الإسلامية فى وقت كان يعيش فيه الغرب عصوره الوسطى التى تميزت بالجدب الثقافى والإبداعى وهذا حديث آخر لايعنينا أن نخوض فيه الآن .. وإنمـا الذى يعنينا أن الانفتاح على الثقافة الغربية (الشق النظرى منها بالذات) حفز بعض النقاد المصريين أن يتعاملوا مع تراثهم العربى من خلال نظرة جديدة تهتم بقضايا ومرتـكزات كانت مطمورة فى هذا التراث نفسه .

ومن بين تلك المرتـكزات والأسس المطمورة اهتمام بعض كتب التراث وقول النقاد العرب القدامى بعملية الإبداع من حيث علاقتها ببواعث نفسية ووجدانية واعية .

بعض هؤلاء - إن لم يكن فى مقدمتهم - عبد القاهر الجرجانى (ت ٤٧١هـ) صاحب « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » إن العلاقة بين مباحث علم النفس وبين النظرية الشعرية ليست بالجديدة ، وإنما هى قديمة قدم محاولات الإنسان الأولى للوقوف على حقيقة النفس من جهة ، وفحص الظاهرة الفنية وتقويم آثارها من جهة أخرى .

وإذا كان هناك من ينـكر أن تـكون للشعر أية دلالة نفسية ويرفض أن يأخذ اللغة بغير دلالتها النحوية والصرفية . . زاعما أن الشعر لايعدو الصياغة اللفظية المعانى والأفـكار فماذا يقول فى مثل قول المتنبى ؟

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم / إذا رأى غير شيء ظنه رجلا ألا يرى

فى هذه الصورة ذات البلاغة التعبيرية الجميلة الوجه الآخر لبلاغة الكشف وامتلاك أعماق النفس ؟

وسنمضى عبر هذا البحث لنتعرف على بعض الملامح النقدية التى اتخذت من الوجهة النفسية مسارا سواء فى عمليات الإبداع والابتكار أو فى عمليات الكشف والتحليل والمراجعة .

وسنبين موقف النقاد من هذه الوجهة إلى جانب بسط الرأى ـ حسب الاستطاعة ـ حول هذا المنهج (القديم الجديد) آملين أن نلقى بأضواء كاشفة على هذا الاتجاه من خلال تعرفنا على رائد من رواد الجيل الثانى ، أتاحت له ظروف دراسته المعمقة فى جامعات الغرب ، وأتاحت له دراسته المعمقة لتراث أمته وانصهاره فى حضارة هذه الأمة ابنا من أبناء القرية المصرية ذات الأخاديد الثقافية والحضارية البعيدة ، والمؤثرة فى صياغة الوجدان الشعبى ، وثائرا فى بدايات حياته ، ودارسا واعيا فى أواسطها ، ومعلما ومربيا وأستاذا فى كهولته وشيخوخته ، ذلكم هو الأستاذ « محمد خلف الله أحمد » أول من ألف كتابا قائما بذاته فى تأصيل وتعميق الاتجاه النفسى وعلاقته بدراسة الأدب ونقده .

١ — رجل من « مدرسة الصامتين » :

من منا لا يزعم أنه أنبل الناس خلقا ، وأشرفهم غاية ، وأشدهم بأسا ، وأقواهم عزيمة ، وأقربهم إلى الإخلاص والصدق ؟

ومن منا لا يزعم الشفافية بجسدة والخير متحركا ، والتواضع يمشى على قدمين فهو أمة وحده بينما غيره ـ من وجهة نظره ـ لا يكادون يحسنون صنعا لأنهم يكادون يحسنون فهما .

ومع هذا كله فهناك بعض الأقوياء ـ كما يقول الواقع ـ يفضل أن يواجه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحياة كما هى ، وكما هو ، لايدعى فضلا ليس من أهله ، ولا يزعم خصيصة ليست من طبعه فهو مع الواقع الحياتى يعيش دون رتوش ولا تزويق ولا بريق .

ومما يدهشك بين هؤلاء أحد أساتذة الجيل الماضى - جيل العواميد « والمداميك » الراسخة رسوخ الجبال الشم - أولئك الذين صنعوا أنفسهم من خلال تجاربهم ، ولم ينتظروا أن يصنعهم الآخرون .

بإيجاز شديد - لقد حفروا حظوظهم وملامح حياتهم فى صخر الحياة بأظافرهم لا بمعادل غيرهم ، ومن ثم فقد بقى ماشيدوا رغم هبوب الرياح والعواصف التى أثارها بعض من أغراهم لمعان الصحافة وبروز أسمائهم على الشاشات الفضية ، والذهبية والبرونزية ، ولكى لا نخرج عن خطوط المسار العلمى لهذه الترجمة الموجزة نعود مسرعين لنلتقى بالنموذج الذى اخترناه علما على هذا الاتجاه الحياتى النبيل فضلا عن الاتجاهات العلمية والثقافية والمعرفية الأخرى والتى سنتعرض لها بتفصيل .

إنه الأستاذ الراحل محمد خلف الله أحمد - رحمه الله - أحد معالم التطور والتجديد فى دراسة الأدب ونقده ، وفى مجال البحوث الإسلامية وتأصيلها خلال أواسط القرن الميلادى الحالى فهو من مواليد عام ١٩٠٤م بقرية «القمرة» بمحافظة سوهاج - وقد عاش حتى اقترب من الثمانين فتوفى عام ١٩٨٣م .

نشأ « خلف الله » بهذه القرية الصغيرة التى تقع على النيل فى أواسط الصعيد فى بيئة تعنى بالدراسات العربية والإسلامية فحفظ القرآن الكريم صغيرا ، كما حفظ طائفة كبيرة من الشعر العربى القديم والحديث ...

وتعلم فى المدارس الابتدائية الأولية والراقية ثم فى القسم النظامى بالأزهر إلى أن التحق بالمدرسة التجهيزية لدار العلوم فى أول نشأتها سنة ١٩٢٠ م فنال منها شهادة الدراسة الثانوية ، ثم دخل القسم العالى فأحرز إجازته سنة ١٩٢٨م وكان فى سنوات دراسته وشهادته أول فرقته (٢) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أشتهر فى بدايات حياته العلمية بالشعر فهو « شاعر الطليعة » ويقول زميله ورصيفه الدكتور مهدى علام : « إن كبار الشعراء حينذاك (شوقى ، وإسماعيل صبرى ، ومطران ، وحافظ إبراهيم ، وعبد المطلب كانوا يعجبون بشعره ، كما كان ساتذته وزملاؤه يعجبون بمقدرته الأدبية وثقافته الواسعة .

وفى سنة ١٩٢٩م سافر فى بعثة علمية إلى بريطانيا فدرس علوم الفلسفة فى جامعة لندن ، ونال بكالوريوس الشرف سنة ١٩٣٤م وأعد رسالة الماجستير فى موضوع « الأحكام الخلقية عند أطفال المدارس وعلاقتها بالعمر العقلى » قبلتها جامعة لندن وأذنت بنشرها ومنحته درجة الماجستير فى الآداب سنة ١٩٣٧م وفى أثناء هذه الفترة ندب محاضرا بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، وانتخب سكرتيرا للنادى المصرى بلندن ، ونظم بالاشتراك مع زملائه عدة مؤتمرات سنوية للطلاب المصريين فى انجلترا لمناقشة أوجه الإصلاح فى حياة المجتمع المصرى ، وألقى عددا من المحاضرات عن نهضة مصر الحديثة فى بعض الهيئات الدولية ، وشارك فى الذكرى الألفية للمتنبى الذى أقيم مؤتمرها فى لندن سنة ١٩٣٦ م ونشر فى مجلة الشعر البريطانية بتلك المناسبة مقالا عن « فلسفة المتنبى من شعره » (٣) .

وعاد الرجل إلى مصر سنة ١٩٣٧م يحمل بين جنبيه طموحا وأملا ووجهة وهدفا من خلال ثقافة واسعة ، ومعرفة موثقة . فدرس لمدة قصيرة بدار العلوم ، ثم نقل فى العام نفسه مدرسا بكلية الآداب — جامعة القاهرة (فؤاد الأول وقتئذ) فشارك فى تدريس الأدب والنقد بقسم اللغة العربية ، وعهد إليه بتنظيم دراسة خاصة لطلبة « الماجستير » فى موضوع « صلة علم النفس بالأدب » وقام برئاسة أسرة الشعر فى الكلية وأشرف على تنظيم مهرجاناتها السنوية ، وندب لإلقاء محاضرات فى معاهد التربية وفى كليات الأزهر (٤) .

وحين أنشئت جامعة الإسكندرية (فاروق الأول حينذاك) سنة ١٩٤٢م

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

نقل إليها مدرسا وترقى فى مناصبها العلمية إلى أن أصبح رئيسا لقسم اللغة العربية وآدابها سنة ١٩٤٨م ثم انتخب عميدا للكلية سنة ١٩٥١ م وجدد تعيينه فى العمارة مرات حتى عين وكيلا لجامعة عين شمس فى سنة ١٩٦١ م إلى أن بلغ سن التقاعد فى سنة ١٩٦٤ م ، ثم اختير مديرا لمعهد البحوث والدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ومقره بالقاهرة حتى الآن ـ وشغل مقعد المدير لعدة سنوات .

وقد شارك الرجل ـ يرحمه الله ـ فى تمثيل وزارة التربية والتعليم ، وجامعة الإسكندرية ، والمجلس الأعلى للفنون والآداب فى عدد من المؤتمرات الدولية كمؤتمرات المستشرقين فى باريس وكبروج واليونسكو ، والمؤتمر العربى الثقافى بلبنان والإسكندرية ، ومؤتمرات الثقافة الإسلامية فى أمريكا وباكستان ، ومؤتمر الكتاب الآسيويين والأفريقيين فى طشقند ، ومؤتمر المعلمين العرب ، ومؤتمرات الأدباء العرب .

وفى سنة ١٩٥٨م اختير ممثلا لجامعة الإسكندرية فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وجدد اختياره سنة ١٩٦٠م ثم أصبح ممثلا لجامعة عين شمس فى هذا المجلس ، وانتخب عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة فى سنة ١٩٥٩م (٥) .

وقد اختير عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ، وكان من مؤسسيه فى أول دفعة لتكوينه بعد عام ١٩٦١ م وأشرف على إخراج « التفسير الوسيط » الذى مازال يصدر ، كما اشترك فى إخراج الجزء الأول من « شرح السنة للبغوى » .

مؤلفاته :

على الرغم من أن المؤلفات التى تركها الأستاذ « محمد خلف الله أحمد » كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قليلة من حيث الكم بمقاييس الجيل الماضى إلا أن لها تأثيرها الكيفى ومداها المعرفى الذى لا ينكر، فمن بين مؤلفاته التى نشرت وأعيد طبع بعضها مرارا :

١ ــ الطفل من المهد إلى الرشد .

٢ ــ كيف يعمل العقل « مترجم » .

٣ ــ دراسات فى الأدب الإسلامى (٦) .

٤ ــ من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده .

٥ ــ ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن الكريم «تحقيق وتعليق» بالإشتراك ..

٦ ــ الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة .

٧ ــ الإسلام والحضارة (مجموعة أحاديث إذاعية) .

٨ ــ معالم التطور والتجديد فى اللغة العربية وآدابها .

٩ ــ حفنى ناصف باحثا وكاتبا .

١٠ ـ دراسات فى الأدب والنقد (محاضرات ألقيت بقسم الأدب واللغة بمعهد البحوث والدراسات العربية العالية) .

١١ ـ كتب فى الأدب والنصوص، وفى التربية الدينية « بالاشتراك » ...

نشاطه فى مجمع اللغة العربية :

المتتبع لحياة الأستاذ محمد خلف الله أحمد خلال فترته المجمعية التى امتدت من سنه ١٩٥٩ م إلى وفاته فى ١٩٨٣ م يلمح من واقع مجلة المجمع ومطبوعاته وأعمال لجانه مدى النشاط الفعال والمساهمة النافعة، فهو عضو فى أكثر من لجنة ومحاضر فى أكثر من مؤتمر، وهو كاتب ودارس وباحث ومحقق، وهو عضو فى (لجنة المعجم الكبير، ولجنة ألفاظ الحضارة، ولجنة العلوم الفلسفية والاجتماعية، ولجنة معجم العلوم الإجتماعية، ولجنة الأدب، ولجنة الأصول، وغيرها) ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن بين البحوث التى ألقاها فى المجمع :

١ ــ الكلمة التى ألقاها فى حفل استقباله بالمجمع لدى اختياره عضوا(٧).

٢ ــ الثقافات القديمة وحركة الترجمة العربية فى القرن الماضى (٨) .

٣ ــ ابن قتيبة والتوجيه اللغوى للكتاب (٩) .

٤ ــ مستقبل الفصحى (١٠) .

٥ ــ الموهبة الشعرية ووظيفة الشعر عند شوقى (١١) .

٦ ــ الأدب العربى المعاصر (١٢) .

٧ ــ محمود تيمور موجها أدبيا (١٣) .

٨ ــ رحلة طه حسين مع الشعر العربى (١٤) .

٩ ــ كلمة فى تأبين المرحوم الأستاذ محمود تيمور (١٥) .

هذا عدا إسهاماته اللغوية والأدبية والنقدية فى مجلة معهد البحوث والدراسات العربية التى ظل مشرفا على تحريرها مدة رياسته للمعهد .

وقد إشترك أثناء عضويته فى مجمع اللغة العربية مع الأستاذ أحمد حسن الزيات ، والشيخ محمد على النجار - رحمهما الله - فى إخراج الطبقة الأولى من « المعجم الوسيط » .

وقد تميزت مؤلفات الأستاذ خلف الله ومحاضراته ومقالاته وبحوثه ودراساته بالتركيز الشديد ، والعناية الفائقة بالمنهج واتباع الأسلوب العلمى المتأدب فى العرض .

حياة حافلة :

من خلال هذا العرض الموجز نستطيع أن نتبين مدى أثر الإسهامات التى أسهم بها هذا الرجل فى حياتنا الثقافية وكيف أنه استطاع أن يعمل فى صمت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العلماء ، وجلال المفكرين دون صخب أو ضجيج فهو لا يعلن عن نفسه فى مجلة أو تلفاز أو إذاعة أو مؤتمر أو مجلس من المجالس المتعددة التى نال شرف عضويتها ، مع أنه كان عضوا فاعلا فى كل هذه المجالات ، فهو ينشر الدراسات والبحوث باللغة الإنجليزية فى المجلات العالمية المتخصصة ، وهو ينشر ويذيع بحوثه ودراساته باللغة العربية فى المجلات المتخصصة داخل مصر وفى أنحاء العالم العربى . . وهو يعمل بجد ونشاط سواء فى الجامعة أو فى مجال الدراسات العليا -- يعمل أستاذا وموجها ومديرا ومؤلفا . . لم يسقط القلم من يده ، ولم يتعثر طوال المدة الطويلة التى عاشها ، فلم يؤثر عنه أنه تزلف إلى أحد من المسئولين بغية منصب أو مركز لا يستحقه ، ولم يرو عنه أنه وصل إلى مقعد غير مخصص لجلوسه ، وإنما هو يعمل فى هدوء تميز به بين أقرانه وعرف به بين طلابه .

كان الرجل ـ رحمه الله ـ ولا نزكى على الله أحدا ـ أستاذا فى الخلق والعلم والريادة والتوجيه والسلوك ، كما كان أستاذا فى المنهجية العلمية والاعتصام بأخلاق العلماء بعيدا البعد كله عن البريق واللمعان .

حدثنى ـ رحمه الله ـ وقد كنت تلميذا متواضعا له لعدة سنوات أشرف فيها على بحث لى لنيل الماجستير . إن الدكتور محمد مندور . وكان صديقا له ـ عقب على موضوع نقدى له كتبه خلف الله فى مجلة الثقافة القديمة حول حاجة الأدب إلى الاستعانة بالمعارف والعلوم الحديثة ، فلما التقيا بعد نشر الموضوع والتعقيب كان من رأى الدكتور محمد مندور أن يستمر النقاش العلمى بينهما حتى ولو لم تتحمل القضية نقاشا مطولا فإن ذلك ـ فى رأى مندور ـ مما يساعد على كسر قشرة التعتيم المفروضة على جيلهم اللاحق بسبب استقطاب العمالقة الكبار أمثال طه حسين والعقاد والمازنى والرافعى وغيرهم من عمالقة الجيل الأول للأضواء فرفض خلف الله هذا العرض مادام ليس خالصا لوجه العلم، ولا ممحضا لوجه المعرفة وحدها ، وفضل أن يعمل فى صمت ووقار على أن يرتفع فى ضوضاء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجلية حتى ولو تكلست قشرة التعتيم حوله - ويبدو أنها تكلست فعلا مما جعل بعض المثقفين يخلط بينه وبين « خلف الله » آخر - هو (الدكتور) محمد أحمد خلف الله صاحب بحث « القصة في القرآن الكريم » (١٦) - ورئيس تحرير مجلة « اليقظة العربية » التى تصدر حاليا (١٧) .

ومن خلال قراءتنا لمقال صغير بعنوان « الإيمان بالمثل العليا » للأستاذ محمد خلف الله أحمد (١٨) نشر منذ أمد بعيد بكتاب الهلال (١٩) يمكننا التعرف على الشخصية الداخلية لصاحب هذه الحياة الثقافية والعملية العريضة فهو يحدد فى هذا المقال مذهبه فى الحياة ، ويصور المعالم البارزة فى تجاربه دون أن ينزلق إلى تزكية نفسية بدون مبرر كما يفعل بعضهم فى كثير مما يكتبون .

لقد استطاع هذا الفارس أن يعصر تجارب نصف قرن من الزمن تمثل أخصب الفترات فى حياته العلمية والعملية بل وفى الحياة الثقافية لجيله ليقدم هذه العصارة المركزة إلى قارئه دون حشد أو إطناب أو إضافات مملة .

يقول خلف الله « إن الذكريات لتحملنى على أجنحتها إلى القرية التى نشأت فيها فى صعيد مصر ، وتأثرت بطبع حياتها من تعاليم الدين والأخلاق والتقاليد الموروثة وبدأت أتمثل فيها لنفسى نظام حياة ، يبدو الآن فى صورة منهج فكرى سلوكى يقوم على الإيمان والاستقامة ، والجد وهدوء التفكير ، والنفور من الجدل ومن الخصومة الجامحة والولوع بالمطالعات الأدبية ، والأنس بشخصيات الورعين والمخلصين (٢٠) .

ويتابع ذلك الفارسي إستعراض رحلة حياته العلمية والعملية على مدار خمسين عاما فتتلاحق أمامه الصفحات متنقلا من القرية إلى المدينة ليكمل مراحل تعليمه ويلتحق خلال هذه الفترة الشبابية بجماعة شرعية سلفية فى نزعتها (٢١) ويتفتح ذهنه للشعر والخطابة .

ويعبر البحار إلى خارج الوطن الدرايسة فى أوربا كما أسلفنا ، وتتفاعل

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

فى داخله ألوان شتى من الأفكار والمبادىء السلوكية ، ويتكشف النموذج الأول الذى وضع أساسه فى القرية ، وتتغير بعض ألوانه دون أن يتغير الجوهر أو تنحرف الأهداف .

ويعود إلى وطنه .. ويتحدد خط عمله فى دائرة البحث والتدريس الجامعى ، ولا يبخل على تلامذته بنقل صور من تفكيره وتجاربه فى محاضرة يلقيها ، أو مقال يكتبه أو حديث يذيعه ـ ويشهد فيما يشهد تطور الحياة الجامعية فى مصر والتى تعد النواة للحياة الجامعية فى شتى أنحاء الوطن العربى .

ويشهد فيما يشهد كفاح القيم الروحية والفكرية ضد مايشرب الحياة ويؤثر فيها من أطماع ومطالب مادية ، وياله من صراع قاسى وعنيف (٢٢) :

ولعل الأمر الذى نود أن نبرزه ونجسده لنضعه نموذجا مشرفا لرجل من جيل الرواد أو ممن سار على دربهم العظيم فأثروا تأثيرا بليغا فى مجمل حياتنا الثقافية والاجتماعية هو أن الرجل ـ كما أومأنا ـ نأى بنفسه عن كثير من مظاهر الخداع والشهرة الزائفة وانتزاع شىء ليس من حقه مهما تضاءل حجم هذا الشىء ـ لقد نجا فارسنا من هذا كله كما نأى بنفسه عن هوس الطنطنة الكلامية ، فلقد ظل الرجل قرابة الثمانين التى عاشها وهو مستمسك بعرى الأصالة الشامخة التى سافرت معه إلى بلاد الغرب ثم عادت كما هى لم تتغير ولم تتبدل ، ولم تتلوث بألوان فاقعة أو باهتة كما يفعل بعضهم ، أو كما حدث لبعض رفاقه حينما سافروا معتصمين بعرى الأصالة فعادوا متأبطين بقايا أيدولوجيات ومناهج مستحدثة جعلتهم فى واد والناس من قومهم وذويهم فى واد آخر !

قال الأستاذ خلف الله وهو يتحدث عن منهجه فى الحياة « هذه الخيوط ـ يقصد الخيوط الحياتية ـ التى يحاول الذهن جمعها عبر خمسين سنة تؤلف فى نظرى نموذج حياة سداه ولحمته ذلك الإطار الذى نسجته القرية : « فمن المعالم البارزة أمام عينى فى موقفى من الناس والأشياء أننى أعد الإيمان والإخلاص ولزوم المثل الخلقية العالية أكبر عوامل النجاح والسعادة فى الحياة (٢٣) .

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

ثم يعلل لذلك مستشهدا بما لمسه عبر رحلته الطويلة فيقول « يبدو لى أحيانا أن تعليل ذلك (يعنى أن الإيمان والإخلاص ولزوم المثل الخلقية العالية أكبر العوامل فى تحقيق النجاح والسعادة فى الحياة) ميسور من الوجهة العملية ، فالإيمان يساعد على الاطمئنان النفسى وذلك عندى ـ والحديث لخلف الله ـ جوهر السعادة ، والإخلاص يبعث على إتقان العمل والنجاح فيه ، والمثل الخلقية من تواضع واستقامة وإيثار وغيرها تزرع المحبة لصاحبها فى قلوب الناس ، وإذا اجتمع لامرىء قدر من الاطمئنان الداخلى ، والنجاح فى العمل ، والذكر الحسن بين الناس فقد توافرت له مقومات وجود صالح » (٢٤) .

ثم يتحدث عما علمته التجارب : « وقد علمتنى التجارب مرة بعد أخرى أن المجتمع قد يهمل الاعتراف بالشخص الخير ، وقد ينخدع إلى حين بمن يحسنون الإعلان عن أنفسهم وادعاء الفضائل ـ ولكنه لا يلبث أن يعود إلى (الخير) فيكرمه ويجعله موضع ثقته ويكافئه بما يعوض عليه سابق الإهمال » (٢٥) .

وحينما نقرأ هذه الكلمات ، ونتعمق هذه التجارب نشعر أن الرجل ـ يرحمه الله ويغفر له ـ كان يمسك بميزان دقيق يضع فيه حصاد التجربة الحية التى عاشها والتى امتدت وتفرعت وانبثقت وأورقت أغصانا وتمددت جذورا .

والحق الذى لا مبالغة فيه أنه كان على قدر كبير من التوازن الأخلاقى والنفسى فكما أثر عنه ، وقد عاصرت جانبا من حياته الأخيرة ، أنه لم يتملق مسئولا كى ينال منصبا أو يحظى بجاه ، أو يحصل على منفعة ، كما لم يؤثر عنه أنه أنزوى فى ركن حصين بحجة فساد الحياة والأحياء كما يتوهم آخرون ، وإنما كان يعمل ويتفاعل مع حركة المجتمع من حوله ، بل كان يحرك من هم حوله ، ومن هم بين يديه من التلاميذ والصحاب .

كان يعمل فى حدود إمكاناته لا يتخطاها ولا يكلف نفسه بأكثر مما فى وسعها ، وهكذا يفعل العقلاء المتوازنون على صراط الحياة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان مدرسة قائمة بذاتها علمت طلاب المعرفة كيف يعملون فى صمت ، وكيف يتحركون فى هدوء ، وكيف يتفاعلون فى عقلانية تساندها العاطفة والروح ، وكيف يتابعون ويتواصلون فى صدق وإخلاص فهم قدوة .. وهم أسوة ، وهم معلمون لغيرهم بعد أن تعلموا من سواهم وحسب الإنسان أن يكون معلما وقدوة .

ولا نبالغ حينما نقول : إن الأستاذ محمد خلف الله أحمد عاش فى صمت الحكماء ، ومات فى صفاء الصالحين ، والحكماء والصالحون هم صفوة المسيرة الإنسانية الصاعدة - حسبهم أنهم يسعون فى هدوء ، ويعملون فى هدوء ، ويرحلون فى صفاء فقد علمتهم التجارب - تجارب الحياة الزاخرة بكل المتناقضات والمتواقفات - إن الأشجار القوية ذات الجذور الممتدة فى أعماق الأرض هى التى تثبت للعواصف وحدها دون معونة من أحد ، كما علمتهم التجارب كذلك أن الزبد يذهب جفاء فلا يمكث فى الأرض ولا يثبت على صفحة الماء « وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » يتعالى كالشجرة الطيبة « أصلها ثابت وفرعها فى السماء » .

وقد قال الدكتور إبراهيم بيومى مدكور رئيس مجمع اللغة العربية فى حفل تأبين الأستاذ خلف الله - رحمه الله - « لقد كان خلف الله جوهرة نادرة فى صفائها وصدقها ، كريمة فى قيمتها ، وقد لمس منه هذا كل من اتصل به وعاشره (٢٦) .

وقال عنه الدكتور محمد مهدى علام عضو مجمع اللغة العربية « أغتر بصداقة وزمالة دامتا أكثر من ستين عاما مع هذه الشخصية الكريمة التى كانت تشع مودة وصفاء وعلما » إلى أن يقول « رحم الله هذه النفس الزكية ، رحم الله من كان خير رفيق على الطريق » (٢٧) .

ونقول فى نهاية هذه اللمحات الموجزة من حياة هذا الرائد : رحم الله محمد خلف الله أحمد ، ورحم كل المتكلمين فى صمت ، البلغاء بلا ضجيج .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢ ــ الاتجاه النفسى لدراسة الأدب ونقده :

بدايات الاتجاه :

حينما انتقل الأستاذ أحمد أمين عام ١٩٢٦م من منصة القضاء الشرعى إلى مقعد التدريس بالجامعة (كلية الآداب ـ جامعة فؤاد ـ القاهرة حاليا) وكل إليه تدريس علوم البلاغة فظل يدرسها لطلابه قرابة عشر سنين كان يختار منها كل سنة موضوعا جديدا ليبحثه ويدرسه للطلاب ، وأثناء ذلك ـ كما يقول الأستاذ محمد خليفة التونسى ـ أحس أنه لابد من الخروج بالبلاغة من مجالها التقليدى الضيق الجامد الذى يؤسفنا أنه لم يزل كذلك حتى اليوم فى بعض كلياتنا الجامعية حتى فى أقسامها العليا ، فانتقل الأستاذ أحمد أمين بالبلاغة إلى مجال أخصب وأوسع هو : «النقد الأدبى» ، ومن أجل ذلك أطلع على ما كتبه فيه العرب والأفرنج ، واقترح تدريسه فى كلية الآداب ، وتطبيق قواعده على الأدب العربى ، فكانت محاولته أول محاولة جامعية لدراسة « النقد الأدبى » على النمط الحديث ، وأخرج فى ذلك كتابه « النقد الأدبى » فى جزئين (٢،١) فلما انتقل الأستاذ خلف الله أحمد إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٧م تعاون فيها مع الأستاذ أحمد أمين كى يخطط لمشروع جديد فى الدراسات العليا بقسم اللغة العربية ـ وهذا المشروع يتمحور حول « صلة علم النفس بالأدب ونقده » ، فعرض جوانب منه على طلابه فى هذا القسم ، ثم واظب عليه بعد انتقاله إلى كلية الآداب جامعة الاسكندرية سنة ١٩٤٦م، وكان من نتائج دراسته لهذا الموضوع فى الجامعتين أن تهيأ له كتاب « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » ، فطبعه لأول مرة سنة ١٩٤٧م . ولم ينقطع عن التبشير بدعوته فى ربط الأدب ونقده بعلم النفس حتى بعد أن صار عميدا لكلية الآداب بجامعة الاسكندرية ، وإلى أن صار عميدا لمعهد البحوث والدراسات العربية العالية .

يتبين من هذا أن إصرار الأستاذ خلف الله على متابعة التبشير بدعوته هذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد إصدار مؤلفه عنها يدل على ارتباطه الكامل بفكرته واقتناعه بها وتفاعله معها . . ومن ثم فالتبشير بالفكرة كان واضحا فى معظم بحوثه ومقالاته وكتبه التى ألفها أو ترجمها منذ وضع مشروعه سنة ١٩٣٧م حتى وضع القلم قبيل وفاته بشهور ، ونتاجه الثقافى خلال هذه الفترة الطويلة غزير وفير . بل إن الأستاذ خلف الله حين إشترك فى المؤتمر العربى الأول فى لبنان سنة ١٩٤٧م - مضى يبشر بفكرته فى « لجنة ترقية اللغة العربية » وإقترحها فى تدريس البلاغة والنقد فى مدارسنا الثانوية ، فوافق على إقتراحه وظل نافذا إلى وقت قريب .

أستاذان ووجهتان وكتابان :

على الرغم من أن فكرة التجديد فى دراسة البلاغة العربية نبعت أساساً من لون الأستاذ أحمد أمين — كما فصلنا أنفا — إلا أنه اتخذ غاية ووجهة تختلف فى محتواها وتفاصيلها عن الوجهة التى خطط لها مع الأستاذ محمد خلف الله أحمد .

اتجه أحمد أمين بالبلاغة العربية من نهجها العقلى القديم إلى ساحة أرحب وأوسع حينما أطلع على ما كتبه الغربيون ورأى - من وجهة نظره - أن كثيرا مما قرأ ينطبق على الأدب العربى كما ينطبق على أدب الغرب ومن ثم فقد اتجه إلى تأصيل النقد الأدبى بمناهجه الغربية فألف وترجم وأضاف وطبق .

وكما يقول : الأستاذ محمد خليفة التونسى أثناء عرضه لكتاب الأستاذ محمد خلف الله أحمد « من الوجهه النفسية فى دراسة الأدب ونقده» فى طبعته الثانية : « إن كلا من الأستاذين أحمد أمين وخلف الله كان وفيا لشخصيته ومزاجه وثقافته مع إشتراكهما فى تدريس موضوعات البلاغة وتطويرهما لها إلى حد يعتبر فى جامعاتنا متقدما حتى الآن ، فالأستاذ أحمد أمين خريج القضاء الشرعى، والعالم الأصولى المؤرخ المتفلسف يوسع البلاغة لتصير نقدا أدبيا ويعنيه من هذا النقد أصوله ومبادئه ثم تاريخه عندنا وعند الغربيين وهم الذين سبقونا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى هذا المجال بدراسات مبتكرة حية واسعة ، وهذا ماضمنه كتاب « النقد الأدبى » فى جزئيه الذى احتفى أولهما بأصول النقد ومبادئه ، وثانيهما بتاريخه عندنا وعند الغربيين وهذا مايدل على عنوان كتابه .

والأستاذ محمد خلف الله خريج دار العلوم والمربى الأديب يمضى بدراسة البلاغة فى وجهة أخرى مستقلة تناسب اهتمامه بالأدب ودراسته العليا فى القاهرة ولندن ، فالأدب ونقده أو « بلاغته » نتاج نفسى ، ومن ثم فهو يحاول أن يكشف الصلات بين هذين الطرفين : النتاج ، ومصدره النفسى ، وفى كشفه عن هذا المصدر النفسى يستعين بما كتبه الباحثون فيه وهم علماء النفس الذين كان لابد أن يلتقى بهم حين كان يدرس التربية وعلومها ليختار من نظرياتهم المفضلة عنده مايعينه على فهم الأدب ونقده (٢٩) .

ومن خلال النظر فى الكتابين : كتاب أحمد أمين « النقد الأدبى » وكتاب خلف الله « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » تتضح محاور الاختلاف حين التقيا عند بعض الموضوعات والقضايا سواء فى تراثنا أو فى التراث الغربى ، ومن هذه الموضوعات والشخصيات فى تراثنا الدراسات البلاغية الجاحظ ، وابن قتيبة ، وقدامة ابن جعفر ، وابن المعتز ، والآمدى صاحب « الموازنة بين الطائيين » ، وأبى هلال العسكرى صاحب « الصناعتين » ، والقاضى عبد العزيز الجرجانى صاحب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، وعبد القاهر الجرجانى صاحب كتابى « أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز » .

أما الموضوعات التى التقيا عندها من التراث الغربى فكثيرة منها آراء أرسطو فى النقد ، والحركتان : الكلاسكية والرومانسية ، وأهم هذه الموضوعات الخلاف بين « ورد زورث » وصاحبه « كولردج » فى مادة الشعر وقوالبه وبواعثه .

وقد ترتب على ذلك أن الأستاذ أحمد أمين ترك كتابه كما أخرجه فى طبعته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأولى، فلم يغير ولم يبدل فيه، ولم يضف إليه اقتناعا منه بما جاء فيه، بينما أتيح للأستاذ خلف الله النظر فى كتابه بعد أن طبعه أول مرة سنة ٩٤٧ م فعاد يتأمل فكرته وينقدها، ويتقدم جوانب منها إلى الدارسين فى قسم « اللغة والأدب » وهو القسم الذى كان يشرف عليه فى معهد البحوث والدراسات العربية، وبذلك تهيأ له موقف أوضح فى فكرته عن صلات علم النفس بالأدب ونقده، وقد عاد إلى الطبعة الأولى من كتابه فتناول كثيرا من فصولها بالتعديل والتنقيح والحذف والزيادة، وأضاف إلى فصولها فصلا أرخ فيه لتطور هذه الفكرة كما ظهرت فى الدراسات الأدبية العربية منذ العقد الثانى من القرن الحالى، حتى تاريخ الطبعة الثانية لكتابه عام ١٩٧٠، ويعرف بأهم ماظهر من البحوث فى هذا السبيل.

أمين الخولى « والملاحظة النفسية » :

ويحسن بنا أن نقف قليلا لنشير إلى جهود باحث جليل هو الأستاذ الشيخ أمين الخولى ـ رحمه الله ـ عندما تنبه ونبه إلى قدم « الملاحظة النفسية » فى الأدب العربى فأشار إليها ووقف عندها محللا من خلال بحث معمق نشره منذ نصف قرن بمجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ بعنوان « البلاغة وعلم النفس »(٣٠) ويعد هذا البحث من البحوث المبكرة التى نشرت لبيان هذا الاتجاه.

وخلاصة ماذهب إليه الشيخ أمين الخولى بعد أن تتبع خطوات « الملاحظة النفسية » فى البلاغة عند القدماء ـ أنه غير راض عن هذه الخطوات الصغيرة التى تشير إلى هذا الملمح، ولا عن المنهج الذى اتبعه القدماء ـ ذلك أنهم لم يلتفتوا إلى صلة « علم النفس » بالبلاغة مع أنه كان أحد أقسام فلسفتهم، وكان من بين معارفهم، ويعلل لهذا بأنهم كانوا يقصدون من البحث النفسى الوقوف على حقيقة النفس وقواعدها دون عناية بالخصائص ووصف المظاهر النفسية فى الحياة الإنسانية، وهى الناحية التى اتجه إليها المحدثون حين انصرفوا عن تعرف المهايا والحقائق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣ ــ أسس الاتجاه فى كتاب :

فى عام ١٩٤٧ صدرت الطبعة الأولى لكتاب « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » بعد أن استقامت ـ إلى حد بعيد ـ أسس هذا الاتجاه الجديد فى حقل النقد العربى ـ وكان الأستاذ محمد خلف الله أحمد قد عرض جوانب من هذا الاتجاه الذى بشر به ووضع أسس منهجه على طلاب الدراسات العليا بكليتى الآداب فى جامعة القاهرة وفى جامعة الاسكندرية التى انتقل إليها عام ١٩٤٦م .

وبعد صدور الكتاب فى طبعته الأولى حاول المؤلف أن يواظب على تتبع بحثه من خلال متابعة الجديد فى هذا الاتجاه ، وهكذا يفعل الباحث الواعى . فمن آفات البحث الأكاديمى انقطاع الباحث عن متابعة موضوع بحثه، بالاطلاع على ما تقذف به المطابع من جديد .

نقول : إن المؤلف لم ينقطع بعد صدور الطبعة الأولى من كتابه عن مواصلة التبشير بدعوته فى ربط الأدب ونقده بعلم النفس حتى بعد أن صار عميدا لكلية آداب الإسكندرية وإلى أن صار عميدا لمعهد البحوث والدراسات العربية الذى سبقت الإشارة إليه ، بل لقد كان ـ رحمه الله ـ يبشر بمنهجه هذا فى المؤتمرات التى كان يحضرها مما يجعلنا نؤكد أن المؤلف كان وفيا لدعوته ، مستجيبا لاتجاهه الدراسى الذى تخصص فيه أثناء دراسته بلندن ـ كما أسلفنا ـ ولذلك لم يكن غريبا أن يهتم الرجل فى دراسته البلاغية بالجوانب النفسية مصرا على أن الأدب ونقده أو « بلاغته » نتاج نفسى .

ويحاول فى دأب صبور ، واتزان عميق أن يكشف الصلات بين هذين الطرفين (النتاج ومصدره النفسى) وهو فى كشفه عن هذا المصدر النفسى يستعين بما كتبه الباحثون من علماء النفس الذين التقى ببعضهم أثناء دراسته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للعلوم الفلسفية والتربوية والنفسية بجامعة لندن ، وقد اختار من نظرياتهم المفضله لديه مايعينه على فهم الأدب ونقده .

١ — تمهيد تاريخى لجذور فكرة الكتاب :

لم ينكر الأستاذ محمد خلف الله أحمد مؤلف كتاب « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » تأثره بدراساته النفسية ، وانعكاس ذلك على نظريته فى الأدب وبلاغته أو لنقل نقده ، فقد قدم لكتابه فى طبعته الثانية (٣١) بتمهيد أشار فيه إلى أن ظروف نشأته وبيئته ودراسته التخصصية أتاحت له « اتصالا وثيقا بفرعين من الدراسات الإنسانية بينهما قربى ونسب . أحدهما أدبى ولغوى فى دراسته العالية بالقاهرة صاحبته ممارسة عملية لفنون الأدب من شعر ومقال وخطابة سياسية واجتماعية ، والثانى فلسفى فى دراسته العليا فى « لندن » صاحبه ميل إلى تتبع الكتابات الغربية الحديثة فى النقد الأدبى ، وميادين احتكاكه بالدراسات الجمالية والنفسية ، وتفتحت للمؤلف من هذا المزاج الثقافى منافذ جديدة فى الدرس الأدبى واتجاه إلى ضرورة الاهتمام بالثقافة الإنسانية الواسعة فى النشاط النقدى (٣٢) .

ويكشف المؤلف لقارئه المتخصص عن أن الفكرة كانت أبعد فى نفسه وأعمق وأرسخ وأقدم عهدا فى تربيته من عهد التقائه بالأستاذ أحمد أمين والتعاون معه لتخطيط موضوع أو مشروع « صلة علم النفس بالأدب » وإن هذا الأصل الأبعد أو الأعمق للفكرة هو الذى هيأه للارتباط بها ، وهو الذى أملاها عليه ، أو أوحاها إليه ، وجعله يتحمس لها ويلزمها حين وضع خطته الدراسية للدراسات العليا بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب جامعة القاهرة .

الممسوحه ضوئيا بـ CamScanner

٢ ـ ألوان من التيارات الفكرية التى أثرت فى دراسة الأدب ونقده :

تناول الفصل الأول من كتاب الأستاذ خلف الله موضوع التيارات الفكرية التى أثرت فى دراسة الأدب ونقده ، وذلك من خلال أربع حلقات تتحدث الأولى منها عن شعور العرب أول نهضتهم الحديثة بالحاجة إلى الروح العلمية وما قدمته أوربا فى عصرها الحديث من دراسات فى مرحلة بعد مرحلة لتوضيح التفكير العلمى وتحريره ، وأثر الثقافة العربية الشرقية فى تلك النهضة الأوربية الحديثة ، وما أفادته حركة التقدم العلمى هناك عبر مراحل تطورها بدءا من العلوم الطبيعية ثم البيولوجية ثم النفسية ، وامتداد التفكير العلمى إلى دراسة الآداب والفنون بوجه عام .

وفى الحلقة الثانية يوضح المؤلف عناية أوربا بمناهج البحث العلمى وخصائصه ، وأثر مذاهب الفلسفة الأوربية فى التفكير الأدبى والقيم الجمالية فى الأدب وسائر الفنون .

كما يوضح من خلال هذه الحلقة نظريات كبار النقاد الفرنسيين الثلاثة « سانت بيف » Sante Beuve — « وتين » Taine — « وبرونتير » Brunetiere ـ وأثر هذه النظريات فى تطور الفكر الأوربى الحديث ثم نشاط الدراسات النفسية ولا سيما التحليلية واحتكاكها بالأدب ، وآثارها فى الإنتاج الفنى والتجربة الذوقية والنقد .

وتوضح الحلقة الثالثة من الفصل الأول بعض النواحى النفسية والفنية والنفسية عند بعض القدماء من النقاد العرب أمثال ابن قتيبة ودراسته لبعض النفسية والفنية ، والقاضى الجرجانى وتحليله للملكة الشعرية ، وعبد القاهر الجرجانى وتأمله الباطنى ونظريته النفسية .

كما يشير فى هذه الحلقة إلى الاتجاه النفسى فى دراسات طه حسين وأحمد أمين ، والعقاد ، وبعض المعاصرين من الباحثين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتتناول الحلقة الرابعة من الفصل الأول العناصر الذاتية فى النقد والأدب واختلاف الاتجاهات النقدية ، وكيف تصور الإغريق والرومان الأدب ، ثم كيف تصوره الكلاسيكيون والرومانسيون .

ثم تحدث فى هذه الحلقة عن خصائص الأدب والزوق والمعرفة عند المحدثين وفى النقد الحديث ويشير إلى نظرية الأدب والنقد العلمى . وينهى الحلقة ببيان الضرورات التى توجب إقامة الدراسات الأدبية على أساس منهج واضح ومحدد .

٣ ــ طبيعة الفن الأدبى من الوجهة النفسية :

هذا هو موضوع الفصل الثانى من كتاب الأستاذ خلف الله « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » وينقسم هذا الفصل إلى حلقتين ، أما الأولى فموضوعها إنشاء الأدب وتذوقه ونقده ، وأما الثانية فموضوعها الذاتية والموضوعية فى تذوق الأدب .

وتركز الحلقة الأولى على بيان ما ارتآه بعض نقاد الأدب وعلماء النفس ، ودراسات النفسانى الأمريكى « ترمان » Terman ـ وأعوانه الأمريكيين فى الذكاء والنبوغ والعبقرية ـ ودراسات النفسانى الانجليزى بيرت Burt وتلاميذه للتذوق الأدبى والفنى بعامة وأثر المزاج فى ذلك .

ويبين المؤلف من خلال الحلقة الثانية دراسات علماء النفس للمتعة الفنية ومحاولة تقسيم الناس إلى أربعة أنماط تقريبية بالنسبة لاستحسانهم الأعمال الفنية .

وهذا الفصل فى مجمله يوضح زحف الدراسات النفسية لتقتحم على الأدب ميدانه ، وتتناول أسسه الجوهرية بالتحليل والتفصيل ، ولا تكتفى فى تناولها بالاعتماد على مجرد الملاحظة والتفكير النظرى ، بل على التجارب والإحصاءات بين فئات شتى من البشر .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٤ — النواحى النفسية والذوقية فى بحوث بعض الشعراء والنقاد :

وفى الفصل الثالث يتعرض المؤلف من واقع تمهيد وحلقة واحدة تحدث فيها عن تجربة لشاعرين إنجليزين « صديقين »هما« وردزورث »wordz,weyth« و« كولدبرج » Koldperg ووجهة نظر الأول ورد الثانى عليه وفى هذا الفصل لم يتوسع المؤلف فى الدراسات النقدية للشعراء العرب ، ولا لشعراء الغرب ، وإنما اقتصر على عرض تلك التجربة الواحدة للشاعرين الإنجليزين وهما من زعماء الحركة الرومانسية المعروفة فى الشعر الإنجليزى إبان أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر إذ وضع هـذان الشاعران خطة لنوعين من الشعر أحدهما تقوم كل قصائده ـ أو معظمها ـ على أحداث وأشخاص مماوراء الطبيعة على أن يكون الهدف ـ كما عبر المؤلف ـ إثارة عناية القارىء بطريق التنبيه التخيلي والتمثيلى للأحاسيس والانفعالات التى تصاحب تلك الأحـــداث والأشخاص لو أنها كانت واقعية ، وقـد تـكفل بنظم هذا النوع من القصائد «كوبرلدج » Koldperg . أما النوع الثانى فتقوم قصائده على موضوعات الحياة العادية حيث الحوادث والأشخاص مما يجده العقل الباحث فى كل قرية ومحله على أن يكون له دراية وحس مرهف ـ وقـــد تـكفل بنظم هذا النوع من القصائد « وردزورث » Wordz,werth وتـكونت منها ومن قصائد زميله معا المجموعة الشعرية التى سماها « القصائد الغنائية » .

وقد لخص الأستاذ محمد خلف الله أحمـــد ببراعة أطراف القضية وآراء الشاعرين فيها وكشف عن تعمقها فى النفس الإنسانية .

وقد استشهد المؤلف على لغة الشعر ـ كما يراها « وردزورث » وهى لغة الحياة العادية ـ بما قاله الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق عن لغة شعر« البهاء زهير » فى كتابه عنه ،وبما قاله نيكلسون Neclson فى كلامه عن شعر أبى العتاهية فى كتابه : « تاريخ العرب الأدبى » .

لممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٥ ـ المنزع النفسى فى كتاب « أسرار البلاغة » :

فى هذا الفصل الرابع الذى يشكل مع ما قبله الركائز الأساسية لكتاب « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » يعرض المؤلف النزعة النفسية التى توخاها عبد القاهر الجرجانى فى كتابه « أسرار البلاغة »(٣٣) .

وينقسم هذا الفصل إلى خمس حلقات ، فى الأولى منها يعقد المؤلف « موازنة » بين « أسرار البلاغة » و « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجانى ، ويخلص إلى أن الكتابين يقومان على نظرتين متكاملتين فى البلاغة ، وبين غرض مؤلفهما فى كليتهما .

ويرجح الأستاذ خلف الله أن « أسرار البلاغة » ألف بعد « دلائل الإعجاز » ويعرج على بيان فوضى الموقف النقدى فى عصر « عبد القاهر » مبينا ناحية البناء والنظم فى « الدلائل » وناحية الصياغة والتصوير فى « الأسرار » ثم بين آراء القدماء والمحدثين فى الصلة بين الكتابين .

أما فى الحلقة الثانية فيعرض المؤلف ما جاء فى أسرار البلاغة من آراء لمؤلفه فى الصياغة والتصوير ، ومنزلة البيان من الخصائص الإنسانية ، وبيان أن جودة الأدب تتوقف على مقدار أثره فى النفس ، ويهتم المؤلف (الأستاذ خلف الله) بتطبيق هذه النظرية على ميادين البيان كالتشبيه والتمثيل والاستعارة إلى جانب بيان المعانى الشعرية وأنواعها والمفاضلة بين الأدباء مع بيان حرص عبد القاهر على توخى المنهج العلمى فى دراسته .

وفى الحلقة الثالثة من الفصل الرابع يطرح المؤلف الفكرة الرئيسية فى كتاب « أسرار البلاغة » وهى : أن مقياس جودة الأدب هو مقدار تأثير الصور البيانية فى نفس متذوقها . ويتتبع المؤلف بيان الفكرة لدى السابقين ويؤكد على أنها جزء من تفكير سيكلوجى أو نفسى كما يتعرض لما يسمى بالفحص

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفنى والإلف والغرابة والذوق والطبع والحس الفنى ، وخواص الفطرة ثم بيان صلة الفكرة الرئيسية لكتاب الأسرار بالدراسة المعاصرة والتفكير المعاصر.

وفى الحلقة الرابعة يرجع المؤلف لدراسة تاريخ النقد الأدبى من الجاهلية حتى القاضى الجرجانى فى القرن الرابع الهجرى ـ قبل عبد القاهر ـ متعرضا لخصوبة النقد فى القرن الثالث الهجرى ، وأهم الكتب فى ذلك القرن كالكامل للمبرد ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والبيان والتبين للجاحظ ، ونقد الشعر ونقد النثر لقدامة بن جعفر . ثم تتبع من خلال هذه الحلقة حركة النقد الأدبى فى القرن الرابع الهجرى متحدثا عن الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى ـ وإعجـــاز القرآن للباقلانى ، والوساطة للقاضى الجرجانى ، والصناعتين لأبى هلال .

ويعود المؤلف فى الحلقة الخامسة من الفصل الرابع إلى عبد القاهر ليبان ما إذا كان عبد القاهر قد تأثر بالثقافة الإغريقية ، وإلى أى حد أفاد من نقد أرسطو ، ومقدار تأثر البلاغيين العرب القدامى بكتابى الشعر والخطابة لأرسطو ، وإنتفاع عبد القاهر بمباحث كتاب الخطابة فى بعض اتجاهاته مع بيان ما فى تفكيره من أصالة ومن تأثر .

٦ ــ انتفاع الناقد الحديث بنتائج الدراسات الأخرى :

أما الفصل الخامس من الكتاب فيتحدث فيه المؤلف من خلال الحلقات الخمس التى قام عليهما عن مدى إنتفاع الناقد الحديث بالدراسات الإنسانية لاسيما علم النفس .

ففى الحلقة الأولى عرض مقتضب لتطور النقد الأدبى ، وبيان أن النقد الأدبى اعتمد على تتبع الأعمال الأدبية التى إستجارها الناس فى كل أمة .

وقد تعرض المؤلف فى هذه الحلقة التباين فى مناهج الدراسه الأدبية ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأكد على أن لكل نزعة نقدية مكانها فى الدراسة ، ولكن لابد للناقد من الإلمام بالدراسات الجمالية والنفسية فى مصر .

وأشار فى نهاية الحلقة إلى بطء سير الدراسات النفسية فى مصر .

وفى الحلقة الثانية توضيح لموضوع العلم وطريقته ونتبع المنهج العلمى فى دراسات الأدب ، ويبين مكان الذوق فى فهم الشعر ثم الذوق والعلم فى بحوث اللاغة العربية ، ويتحدث عن سيكلوجية الذوقيين والذهنيين وعن الذوق والمعرفة ومكانة كل هذا فى فهم الشعر .. وننتهى هذه الحلقة بالحديث عن ثقافة الأديب والناقد .

وفى الحلقة الثالثة يقدم المؤلف نماذج من الدراسات المعاصرة ، والدارسين المعاصرين الذين انتفعوا بالدراسات الإنسانية ومنها النفسية ، كما انتفعوا بالمنهج العلمى فى دراسة الأدب ونقده وقد قصر المؤلف حديثه على دراسة الدكتور طه حسين ورسالته للدكتوراه عن أبى العلاء المعرى ، ودراسة الأستاذ أحمد أمين وتحليله للحياة العقلية العربية خلال كتبه عن فجر الإسلام وضحاه وظهره.

ثم تحدث عن أن الحياة الإنسانية نسيج من الظواهر المتشابكة وينهى هذه الحلقة بالإشارة إلى الكسل العقلى عند شعراء مصر المعاصرين .

أما الحلقتان الرابعة والخامسة فقد خصصهما المؤلف للحديث عن الاتجاه النفسى والآراء الذوقية فى كتابات الدكتور طه حسين .

ففى الحلقة الرابعة بيان لمظاهر الاتجاه النفسى فى دراسات طه حسين لمجموعة من شعراء العربية من بينهم شعراء الغزل فى العصر الأموى ، وبشار وأبو تمام وابن الرومى ، والمتنبى وأبو العلاء .

وفى الحلقة الخامسة بيان رأى الدكتور طه حسين فى تقديره للمثل الشعرى الأعلى ، والذوق الأدبى الحديث ، ومصادر الجمال الفنى فى الأدب قديمه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحديثه ، ثم الحديث عن طريقته من تحليل القصيدة العربية ، ثم بيان منهجه فى النقد وكيف أنه يجمع بين الذوق والمعرفة .

٧ — تاريخ وتقوم للاتجاه النفسى فى الدراسة العربية للأدب ونقده:

وفى الفصل السادس والأخير يرصد المؤلف على مدار ست حلقات تاريخ وتقويم الاتجاه النفسى فى الدراسات العربية للأدب ونقده أثناء القرن الحالى (العشرين) - ويبدأ ذلك فى نظر المؤلف برسالة الدكتور طه حسين عن أبى العلاء المعرى التى نال بها الدكتوراه من الجامعة المصرية سنة ١٩١٤ م وأخر رسالة ظهرت سنة ١٩٦٩ م لأحد تلاميذ المؤلف الجامعيين وهو الدكتور يوسف عز الدين السامرائى وعنوان رسالته « شعراء العراق فى القرن العشرين » وقلما ترك المؤلف رسالة لأحد الجامعيين تتصل بموضوعه - خلال هذه الفترة الطويلة - إلا نوه بها وأطال الوقوف عندها .

جاء هذا كله فى الحلقة الأولى ، أما الحلقة الثانية من الحلقات الست التى اشتمل عليهما الفصل الأخير فقد عنى المؤلف فيها ببيان بدايات الاتجاه النفسى فى أدبنا المعاصر بظهور كتاب ذكرى أبى العلاء الذي أشرنا إليه آنفا للدكتور طه حسين ثم ما تناثر من ذلك فى كتب وبحوث أخرى للدكتور طه مع إشارة خفيفة إلى هذا الاتجاه عند مدرسة « الديوان » ورجالها (العقاد وشكرى والمازنى) .. ولم يشر المؤلف إلى شىء من أعمال شكرى فى الوقت الذى بين فيه هذا الاتجاه فى كتابات الشيخ أمين الخولى - رحمه الله - وأنهى الحلقة بالحديث عن كتابه الذى نتحدث عنه « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » فى طبعته الأولى باعتباره أحد المعالم المبكرة والبارزة فى هذا الاتجاه.

وفى الحلقة الثانية وضح المؤلف أثر هذا الاتجاة فيما صدر بعد كتابه من كتب الجامعيين أو لنقل الأكاديميين وقد اختص هذه الحلقة بكتاب « الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة » للدكتور مصطفى سويف ، مع إشارة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خفيفة إلى كتاب « دراسات فى علم النفس الأدبى » للأستاذ حامد عبد القادر وكتاب الأصول الفنية فى الأدب للأستاذ عبد الحميد حسن .

أما الحلقة الثالثة فقد خصصها المؤلف للحديث عن كتاب « التفسير النفسى للأدب » للدكتور عز الدين إسماعيل وبيان ما تضمنه الكتاب من مناقشات تدور حول تأصيل هذه القضية إلى جانب تفسير بعض الأعمال الأدبية (شعر ورواية) على ضوء الدراسات التحليلية النفسية .

أما الحلقة الرابعة فتوضح الاتجاه النفسى فى كتاب « قضايا النقد الأدبى والبلاغة » للأستاذ زكى العشماوى ، وكتاب « التيارات المعاصرة فى النقد الأدبى » للدكتور بدوى طبانه .

وفى الحلقة الخامسة توجيه للأنظار إلى ما يكتبه الأدباء عن أنفسهم وأشار إلى بعض دراسات حديثة لبعض ما كتبوه ، وآخر هذه الدراسات ما تضمنه كتاب « شعراء العراق فى القرن العشرين » للدكتور يوسف عز الدين السامرائى .

أما الحلقة السادسة وهى ختام الفصل وختام الكتاب فتضمن جهود المؤلف لتقديم فكرته إلى كوكبة الباحثين والدارسين والنقاد والمبدعين خلال الخمسين سنة الأخيرة ونتائج دعوته إليها .

ومما يوقظ الذهن ويلفت النظر أن المؤلف كان حريصا على شيوع المنهج العلمى فى توثيق نصوصه وتقوله ، بل كان حريصا على هذا فى بحثه كله فهو يشير فى هوامش صفحات كتابه إلى ما يرجع إليه من كتب وصفحات بدقة بالغة . ومع ذلك يشير آخر كل فصل إلى مراجعه الخاصة به ، يختتم كتابه بذكر مراجعه كلها بعامة مع فهرس مفصل للأعلام ، ثم فهرس مفصل لموضوعات كتابه .

٤ — تعليقات وهوامش حول كتاب من الوجهة النفسية :

١ — ظهر كتاب « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » للأستاذ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محمد خلف الله أحمد أستاذ الأدب العربى فى جامعة الإسكندرية (فاروق الأول حينذاك) فى طبعته الأولى عن « لجنة التأليف والترجمة والنشر » فى آخريات سنة ١٩٤٧ م وأعلنت عنه « اللجنة » فى غلاف عدد من أعداد مجلة الثقافة بأنه « كتاب يعرض وجهة نظر جديدة فى البحث الأدبى ، ويضع الأساس لدراسة نفسية وذوقية شاملة ، توجه النقد الأدبى إلى أهدافه الصحيحة ، وتحرر الذوق الحديث من رق البلاغة المدرسية » ومع أن من حقوق « المعلن » أن ينوه بكتابه كيفما شاء وحسبما أراد ليسوق « بضاعته » تجاريا إلا أن رسالة الكتاب النقدى الذى كتب للمتخصصين والدارسين من « الأكاديميين » يجب أن يتميز بالتجديد والدقة التامة حتى عند تحرير الإعلان .

وإذا أجزنا « للمعلن » أن يقول عن كتابه إنه يعرض وجهة نظر جديدة ، ويضع الأساس لدراسة نفسية وذوقية شاملة فما أظننا نقبل بسهولة قوله : إن هذا الكتاب أو إن تلك الدراسة التى اشتمل عليها الكتاب هى التى ستحرر الذوق الأدبى من رق البلاغة المدرسية ، فهو ولاشك يريد بالبلاغة المدرسية تلك « البلاغة القديمة » وكأن الذوق الأدبى عاش طوال العصور السابقة فى حالة انحدار وتخلف إلى أن جاءت دراسة الأستاذ خلف الله بعد مايربو على ألف عام لتحرر الذوق الأدبى . مع أن الكتاب الذى اشتمل على هذه الدراسة لم يكتب له الرواج حتى لدى المتخصصين وقد فصل ربع قرن كامل من الزمن بين الطبعتين الأولى عام (١٩٤٧ م) والثانية عام (١٩٧٠م) ولولا أنه قرر على طلاب الدراسات العليا بمعهد البحوث والدراسات العربية فى ذلك الحين ماصدرت طبعته الثانية .

وليس معنى ذلك التهوين من قيمة الكتاب أو الغض من شأن الدراسة التى اشتمل عليها فما لاريب أن المؤلف - رحمه الله - طرق موضوعا صعبا وراد طريقا غير ممهد من قبل ، وأتى بجديد لم يكن معروفا الباحث المتخصص فما بالنا بسواه ؟!!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢ ــ وحينما ظهرت الطبعة الأولى من الكتاب فى الأربعينيات من هذا القرن كان القلق النقدى ما زال يموج؛ فالرومانسية كانت مزدهرة، وغلبة النقد الذاتى على الجو الأدبى كانت مسيطرة إلى حد ما ـ وكانت جهود المدارس والاتجاهات النقدية تحاول فرض مفاهيمها الجديدة (مدرسة الديوان ـ الغربال لميخائيل نعيمة ـ عقلانيات طه حسين ـ تهميشات ومناوشات سلامة موسى ورومانسيات المهجريين إلى آخره ..) ٠ ـ وحاول الأستاذ محمد خلف الله أحمد ـ العائد من بريطانيا حديثا حينذاك ـ أن يحمل مفاهيم « علمية جديدة » يريد أن يوطدها ويحفر لها مكانا فى حقل البلاغة العربية « النقد الأدبى » وقد وجد الفرصة مهيأة لدى عودته ليعمل مدرسا للأدب والنقد بكلية الآداب بجامعة القاهرة (فؤاد الأول سابقا) وقد أسلفنا القول فى ذلك(٣٤) .

٣ ــ معنى ذلك أن الأستاذ خلف الله كان تلميذا مخلصا فى مدرسة الدكتور طه حسين التى أشاعت ضرورة الالتزام بالمنهج العلمى فى دراسة الأدب ونقده .. وذلك على الرغم من أن خلف الله لم يتتلمذ على طه حسين فى قاعة الدرس ولكنه تأثر بأفكاره وتشيع لمفاهيمه وقد عاش ـ رحمه الله ـ على هذا الولاء إلى أن لقى الله .

ويقول الدكتور زكى نجيب محمود عند عرضه لكتاب الأستاذ خلف الله « من الوجهة النفسية .. » ـ فى مجلة الثقافة ـ (٣٥) « قرأت هذا الكتاب فوجدت كاتبه يكاد يتميز من الغيظ إشفاقا على بنى وطنه أن يمضوا فيما هم ماضون فيه، من تحد لأسلوب العلم وطرائق العلماء ـ لا أقول فى أمور حياتهم الجارية ـ بل فيما يعالجون من بحوث علمية » .

٤ ــ واستنباط الدكتور زكى نجيب محمود صحيح بدليل أن المؤلف نفسه أشار إلى هذا فى كتابه قائلا : « كانت الحاجة إلى الروح العلمى ـ وإلى تطبيقه فى مختلف نواحى الحياة ـ أول ماشعرت به فى مصر حين بدأت نهضتها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحاضرة ، فقد أدركت أن تأخرها فى العلم ، وعدم اصطناعها لمنهجه كان العلة الأدولى فى تأخرها عن العالم الأوربى فى ميادين السياسة والفكر والاجتماع »(٣٦) .

ويمكننا أن نستأنس بما دار بينه وبين الدكتور محمد مندور من حوار حول هذه القضية لندرك مدى الخلاف بين وجهتى النظر من حيث تعلق ذلك بالنقد الأدبى .

٥ ــ وانطلاقا من هذا المفهوم الذى دعا إليه الأستاذ خلف الله فى كتابه وما دار حوله من مناقشات ، بل فى دراساته كلها نراه يلتزم بروح العالم المدقق المحقق من أول سطر فى كتابه إلى آخر سطر فيه ، فهو لا يكاد يقرر شيئا إلا جاء به مشفوعا بالسند والدليل والبرهان فقد رجع إلى أربعة وسبعين مرجعا . . وهو قد راجع هذه المراجع مائة وستين مرة ، ولا شك أنه عاد إلى مئات من الكتب ـ غير ماذكر وذكرنا ـ أعانته على أن يكتب ما كتب وإن لم يذكرها فلأنها أصبحت (حينها) جزءا من نسيجه العقلى لحمة وسدى .

٦ ــ وبعض ماندهش له أن يحتد الأستاذ خلف الله ـ وقد عرف إبان حياته الشخصية والعلمية بالأدب الجم ، والخلق الرفيع فيهجم هجوما ضاريا على النقاد الذين لم ينصاعوا لما دعا إليه ـ ويقرر أنهم بدل أن يأخذهم « الخزى والخجل » لما هم فيه من « جهل وعمى » تراهم « يرفضون الاستعانة بعلم النفس فى فهمهم للأدب ، وهم فى ذلك يتسترون وراء لفظة « لايفهمون لها معنى » وتسبب كثيرا من الفوضى الأدبية وهى حكمة « الذوق » كأنما يخبط هذا « الذوق » المنكود خبط عشواء على غير هدى من المعرفة العقلية . لهذا ينادى المؤلف بوجوب التعديل فى قاعدة « الذوق » بحيث يصبح عمادنا فى الحكم الأدبى « الذوق المستنير » الذوق الذى يستند على ركيزة من العلم الصحيح .

وإذا أردنا أن نتبين حقيقة ذلك المنهج الصارم الذى اتبعه المؤلف فى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كتابه هذا والذى أراده منهجا لكل ناقد فلنقرأ له « إن الوجهة التى اتجهنا إلى إبرازها فى فصول هذا الكتاب هى ضرورة توسيع ثقافة الأديب والناقد وطالب الأدب من طريق الإطلاع على نتائج الدراسات الإنسانية الأخرى بعد طول ممارسة الأدب وتذوق روائع آثاره .. ثم رفع البحوث الأدبية إلى مستوى منظم واضح المعالم، تتلاقى فيه عقول الباحثين وأذواقهم » (٣٧) .

٧ — يرى الدكتور زكى نجيب محمود - وقد حلل الكتاب وعرضه إبان ظهوره مباشرة (الطبعة الأولى) - أن المؤلف لم يوفق فى تسمية كتابه حينما جعل عنوانه : « من الوجهة النفسية » إذ أن قارىء الكتاب بإمعان لايكاد يشعر بذلك تماما وليته أطلق عليه « من الوجهة العلمية » ولوجهة نظر عارض الكتاب وجاهتها من حيث قصد المؤلف غرس منهجه العلمى فى حقل الأدب والنقد فلا نظن علم النفس - باعتباره علما - قد بنى لهذا الكتاب أساسه .

٨ — كذلك فإن عارض الكتاب ومحلله أنكر على الكاتب والكتاب موقفه من قضية الجمال فى الأدب وهل هو ذاتى أم موضوعى وقال : « إنى فرغت من قراءة الكتاب دون أن يوقفنى المؤلف على أرض صلبة فى هذا الموضوع ، ولم يبين فى حسم قاطع إلى أى الفريقين يميل أو ينتمى عبدالقاهر الجرجانى وذلك حينما تعرض له « لقد تركنا أمام نصوص هذا الناقد القديم مع أنه كان أقدر منا على استخلاص المبادىء العامة من هذه النصوص ، ففى نص أثبته الكاتب للجرجانى فى موضعين أحدهما يقول « فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول : حلو رشيق ، وحسن أنيق ، وعذب سائغ ، وخلوب رائع فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف وإلى ظاهر الوضع اللغوى - بل إلى أمر يقع من المرء فى فؤاده وفصل يقترحه العقل من زناده » (٣٨) .

وهذا النص - كما يرى الدكتور زكى نجيب محمود - يجعل جمال الأدب عند

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجرجانى ذاتيا لا موضوعيا(٣٩) لـكن المؤلف يعود فيسوق للجرجانى نفسه مثلا لناقد لا يقف من الأعمال الفنية موقفا نفسيا انفعاليا (٤٠) .

على أن الذى لم يلتفت إليه الدكتور زكى نجيب محمود حين عرضه وتحليله لـكتاب الأستاذ خلف الله أن الرجل لم يهمل التأثير الذاتى للنص الأدبى إنكارا كليا فهو لم ينـكر الذوق وإنما أراده « ذوقا مستنيرا » على حد تعبيره ، وهذا يشير دون خفاء إلى الاحتفاء بالذاتية الموضوعية التى لاتهمل القاعدة العلمية ولا تخرج عن مقتضيات النتائج العلمية التى تؤثر فى الذوق الانفعالى المحض فتحوله إلى ذوق مستنير عاقل .

٨ ــ مما أخذ على المؤلف استعماله للمصطحات الأجنبية دون محاولة ترجمتها إلى العربية فقد كان بوسعه كما قالوا أن يجعل « اتباعى » مكان « كلاسيكى » « وابتداعى » مكان « رومانتيـكى » « والنفسية » بدلا من « سيكلوجى » . وإن كنت أرى أن ذلك مما يمـكن الترخص فيه مادام الأمر محدودا ويكاد يكون وقفا على المتخصصين الذين يدركون استعمال المصطلحات سواء أكانت أجنبية أم مصرية أم عربية الأصل .

ولو أن ذلك جاء فى كتاب عام ـ ألف لـكافة المثقفين من بينهم القارىء العادى لـكان لوجهة نظر الناقدين للمؤلف وجاهتها .

٩ ــ على أن الذى نود أن نؤكد عليه فى نهاية هذه التعليقات أن الأستاذ خلف الله ـ طيب الله ثراه ـ لم يتشامخ ولم يتعمالق مع بروز وجدة الاتجاه الذى دعا إليه ـ فيدعو إلى تـكوين أو إنشاء مدرسة نقدية جديدة ، وإنما أكتفى فى تواضع العلماء بتأكيد الدعوة إلى أن النقد الأدبى فى حاضره المعاصر واسطة بين المنشىء والمتذوق ، وإن نجاح الوسيط يزداد وتبرز أهميته بقدر نعمته فى فهم أسرار النفس الإنسانية ، فلابد له من الاهتمام بعلم النفس الحديث دون إهمال للدراسات الإنسانية الأخرى .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٠ – كما نرى أن كتاب « من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده » للأستاذ خلف الله لم يكن خلاصة دراسته الأجنبية وحدها ، وإنما هو نتاج مشترك لدراسته التراثية والأصولية المعمقة فى الأزهر وفى دار العلوم مضافا إليها دراسته الإنجليزية المعمقة لفرع تخصصه فى علم النفس والتربية ذلك الذى أخلص له فى دأب جاهد وإخلاص عميق مرفودا بخلفية ثقافية وحياتية جعلته يمزج بين القديم والحديث على هدى وبصيرة دون الذوبان فى بوتقة الثقافة الغربية مثلما حدث لبعض الدارسين ممن سافروا للدراسة فى بعض الجامعات الأوربية من أبناء جيله وغير جيله .. رحم الله الرجل رحمة واسعة .

٥ – خلاصات ونتائج :

وخلاصة ما توصلنا إليه عبر هذه الرحلة مع هذا الاتجاه :

١ – أننا لا ننكر على الأستاذ محمد خلف الله أحمد ولا على غيره ممن نهجوا هذا النهج ، واتجهوا هذه الوجهة – لا تنكر عليهم منهجهم ولا اتجاههم ، فدارس الأدب محتاج بلاشك إلى التزود فضلا عن الانتفاع بنتائج العلوم الإنسانية بل والبيولوجية والطبيعية فلأن يكون الكاتب أو الأديب أو الناقد ملما بكل هذا خير من أن يقف عند حدود المعرفة الأوربية وحدها ، فالأدب جماع المعارف الإنسانية باعتباره ضربا من أرقى ضروب الفنون .

٢ – ولكننا نرى فى الوقت نفسه أنه لابد للدارس مع هذه المعارف الواسعة – إن ألم بها – لا بد له من بصيرة تهديه ، وذوق يرشده إلى استجلاء وممارسة دراسة النصوص الأدبية مباشرة ، فمما لاشك فيه إن الدارس الفاحص لن يستطيع بدون هذه البصيرة وبغير هذه الممارسة المباشرة تذوق الأدب ونقده ، ولو أحاط بكل معارف الأرض وعلومها إنسانية كانت أم بيولوجية أم غير ذلك .

٣ – ولأن الدارس البصير يقف أمام النص وقفة المتأمل المدرب ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والباحث المتحنث فلابد له من استجلاء كل مايحيط بالنص من ظروف خارجية وداخلية ، وإذا كان الإلمام بقواعد ونتائج علم النفس يساعده على استبصار بواعث العمل الأدبى الداخلية فإن ذلك لن يجعلنا نقول : إن العمل الفنى يستمد عناضره كلها من « وراء الوعى » وينابيع الإلهام - كما قال بعضهم - وإنما يمكننا التأكيد على أنه يزاوج بين الوعى وما وراء الوعى ، ويستعين بهذه القوى وتلك على السواء « فالعمل الفنى كله وحدة مجتمعة ومتداخلة لا يقوم أحد عناصرها بذاته ، ولا يرى منفصلا عن بقية العناصر (٤١) .

٤ — وحينذاك لا يسعنا إلا أن ندعو - كما دعا غيرنا من النقاد المعتدلين - إلى ضرورة احتذاء المنهج المتكامل - غير أننا نضيف ضرورة اعتبار ماتوصل إليه علم النفس ، وما توصلت إليه علوم الجمال من نتائج .

٥ — ومعلوم أن المنهج الكلى يتناول العمل الأدبى من جميع زواياه واتجاهاته كما يتناول صاحبه ، إلى جانب تناوله للبيئة والتاريخ مع عدم إغفاله للقيم الفنية الخالصة .

وهو فى الوقت نفسه لا يفرقهما فى غمار البحوث التاريخية أو الدراسات النفسية ، وإنما يجعل المتلقى يعيش فى جو الأدب الخاص دون أن ينسى مع هذا أن النص أحد مظاهر النشاط النفسى ، كما أنه أحد مظاهر المجتمع التاريخية ، وهذا هو الوصف الصحيح المتكامل للفنون والآداب .

٦ — وبذلك نرى أن المنهج الكلى أو المتكامل الذى يحمل فى داخله عصارة الاتجاهات والمناهج النقدية فى كل أشكالها وملامحها القديمة والمستحدثة أصبح مطلوبا إن لم يكن ضروريا ، فالعملية الإبداعية فى واقعها المعاصر لم تعد - كما بنيا أنفا - مجرد علاقة ذاتية بين النص ومبدعه وحدهما ، وإنما هى تفاعل ثلاثى ينتظم (المبدع والنص والمتلقى) ولفك العلاقة بين هذه المحاور الثلاثة لابد من المرور أو لنقل الدخول إلى دوائر كثيرة من بينها الدائرة الاجتماعية التى عاش فى ظلها الأديب المبدع ، والدائرة النفسية التى سيطرت عليه حالة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإبداع والابتكار ، والدائرة التاريخية التى لا يمكن أغفال تأثيرها وتظليلها للنص وصيغة بصيغتها - كذلك فإن المتلقى يدخل شاء أم أنى فى جملة هذه العناصر التى ذكرنا .

أما النص وهو موضع العناية الأولى فلا يمكن أن يكون بمعزل عن مبدعه ومتلقيه ومن ثم فهو يخضع لهذه الأطر من ناحية ، كما يخضع خضوعا مباشرا لأسس المنهج الفنى من حيث الترابط والتعاضد والانسجام وعدم الخروج على القواعد الموضوعة ، والعلاقات الفنية ذات المدلول الجمالى وهكذا فلا يمكننا إنكار العلاقات النفسيةوالاجتماعيةوالتاريخية ،ومن باب أولى الفقهية واللغوية فكل ذلك يتفاعل ويتعاضد لخدمة النص من ناحية ، ولتوصيل حبال المودة بين المبدع والمتلقى عن طريق النص نفسه من ناحية أخرى .

٦ — على أن الذى نود أن نوضحه فى النهاية أن المناهج - كل المناهج - تصلح وتفيد حينما تتخذ كمنارات ومعالم توضح الطريق أمام الدارس أو الناقد، ولكنها تفسد وتضر حينما تتحول إلى قيود وحدود وكوابح شأنها فى ذلك شأن «المدارس» فى الأدب وفنونه ، إذ أن كل قيد محدود هو قيد الإبداع ، ومعوق لسريان الابتكار - وكما قال بعضهم - « قد يضع القالب لتضبط به النماذج المصنوعة ، لا لتصب فيه النماذج وتصاغ » (٤٢) والأدب ضرب راق من ضروب الفن يحتاج إلى جرعة كافية كافية من الحرية ، ومن ثم فهو جموح يتأبى وينفر من الخضوع للقيود والحدود ، مع أن الآدباء الملتزمين لا يخرجون فى كثير من أحوالهم على القواعد والأسس المرسومة ولكن فرق بين الإلزام والإلتزام.

د . محمد جاد البنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(هـــوامش و تعقيبات)

(١) النصوص مأخوذة من كتاب الدكتور محمود السمرة « فى النقد الأدبى، الطبعة الأولى سنة ١٩٧٤م - بيروت .

(٢) المجمعيون فى خمسين عاما - مهدى علام - منشورات مجمع اللغة العربية - سنة ١٩٨٦م .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧١

(٤) المصدر السابق ص ٢٧١

(٥) المصدر السابق ص ٢٧٢

(٦) يلاحظ أن هذا الكتاب الذى يؤصل لمنحى الأدب الإسلامى نشر فى القاهرة عام ١٩٤٧ م مما يجعلنا نؤكد أن الأستاذ خلف الله أحمد يعتبر رائدا فى هذا الاتجاه ، وهذا مايحتاج إلى كشف وإبانة .

(٧) مجلة مجمع اللغة العربية - الجزء الرابع عشر - ص ٢٨٧

(٨) البحوث والمحاضرات « طبع المجمع » ص ٦٣

(٩) بحث ألقى فى دورة مؤتمر المجمع ببغداد عام ١٩٦٥ م

(١٠) بحث ألقى فى مؤتمر الدورة الرابعة والثلاثين للمجمع .

(١١) المؤتمر الخامس والثلاثون للمجمع .

(١٢) مجلة مجمع اللغة العربية - الجزء الخامس والأربعون ص ١٩

(١٣) مؤتمر الدورة الأربعين للمجمع .

(١٤) « « الواحدة والأربعين للمجمع .

(١٥) مجلة مجمع اللغة العربية - الجزء ٣٣ ص ٢٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(١٦) جنح الباحث فى هذا البحث إلى مالم يحمد نتيجة الدفوع فى بؤرة المناهج غير الملتزمة ، أو البعيدة عن قواعد البحث العلمى الصحيح .

(١٧) تصدر هذه المطبوعة عن حزب التجمع الوطنى الديمقراطى .
والدكتور : محمد أحمد خلف الله عضو عامل فى لجنته المركزية الآن .

(١٨) العدد ٤٨ مارس ١٩٥٥م وما زال يصدر شهريا عن دار الهلال بمصر .

(١٩) لم يحصل الأستاذ محمد خلف الله أحمد على درجة الدكتوراه .
وهذا من جملة الفوارق بينه وبين سميه .

(٢٠) « هذا مذهبى » ـ كتاب الهلال ـ العدد ٤٨ .

(٢١) الجمعية الشرعية (جمعية العاملين بالكتاب والسنة) . ومؤسسها هو الشيخ خطاب السبكى ـ رحمه الله ـ .

(٢٢) من مقال بعنوان « رجل من الصامتين » ـ لمحمد جاد البنا ـ جريدة الجزيرة السعودية عدد ٤٩٤٢ فى ١٠/٤/١٩٨٦

(٢٣) هذا مذهبى ـ كتاب الهلال . العدد ٤٨

(٢٤) المصدر السابق .

(٢٥) « « «

(٢٦) المجمعيون فى خمسين عاما ص٢٧٤ ـ من مطبوعات مجمع اللغة العربية .

(٢٧) المصدر السابق .

(٢٨) مجلة العربى الكويتية ـ العدد ١٦٩ ديسمبر ١٩٧٢م ص١٢٣ ، ١٢٤

(٢٩) المصدر السابق .

(٣٠) مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ فؤاد الأول سابقا ـ المجلد الرابع من الجزء الثانى سنة ١٩٣٩

(٣١) صدرت هذه الطبعة عن معهد البحوث والدراسات العالية ـ القاهرة عام ١٩٧٠ م

(٣٢) انظر : «تمهيد» الطبعة الثانية لكتاب « من الوجهة النفسية ... » .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(٣٣) الفصل الرابع هذا هو أطول فصول الكتاب . وهو تقريبا أوسع دراسة وأعمقها فى العربية لكتاب « أسرار البلاغة » . ولا يكاد يباريها عمقا وسعة إلا ما كتبه عن : « الأسرار » الدكتور محمد مندور فى كتابه : « النقد المنهجى عند العرب » .

(٣٤) انظر بدايات الفصل الأول من هذا البحث .

(٣٥) مجلة الثقافة : (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ـ العدد ٤٦٨ .

(٣٦) « من الوجهة النفسية ... » ص(١) ـ الطبعة الأولى .

(٣٧) « من الوجهة النفسية » ص (١٢٧) .

(٣٨) المصدر السابق ص ٢١

(٣٩) مجله الثقافة ـ العدد (٤٦٨)

(٤٠) انظر النص فى ص (٤٣)

(٤١) النقد الأدبى ـ أصوله ومناهجه ـ ص (١٨٩)

(٤٢) المصدر السابق ـ ص (١٢٤) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهم مصادر البحث ومراجعه

أولا : الكتب والدراسات :

١ ــ أحمد أمين : النقد الأدبى (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة عام ١٩٥٢م) .

٢ ـ سيد قطب : النقد الأدبى (دار الشروق ـ الطبعة الثالثة القاهرة ـ بيروت عام ١٩٨٠م) .

٣ ــ د . سهير القلماوى : النقد الأدبى (دار المعرفة ـ الطبعة الثانيه القاهر عام ١٩٥٩) .

٤ ــ عباس محمود العقاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى .

٥ ــ د . عبد الحميد جيده : الاتجاهات الحديثة فى الشعر العربى المعاصر (مؤسسة نوفل ـ الطبعة الأولى بيروت عام ١٩٨٠م) .

٦ ــ د . عز الدين إسماعيل : التفسير النفسى للأدب (دار العودة ـ دار الثقافة بيروت ـ بدون تاريخ) .

٧ ــ على أدهم : على هامش الأدب والنقد (دار المعارف ـ القاهرة بدون تاريخ) .

٨ ــ محمد خلف الله أحمد : من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده (لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى ـ القاهر عام ١٩٤٧م) .

٩ ــ محمد خلف الله أحمد : من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده (معهد البحوث والدراسات العربية العالية ـ الطبعة الثانية ـ القاهرة عام ١٩٧٠م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٠ — محمد مبارك : دراسات نقدية فى النظرية والتطبيق (منشورات وزارة الإعلام العراقية بغداد عام ١٩٧٦).

١١ — د. محمد مندور : الميزان الجديد - (مكتبة نهضة مصر ومطبعتها (الطبعة الثالثة - القاهرة - بدون تاريخ).

١٢ — د. محمود السمره : فى النقد الأدبى (الدار المتحدة للنشر - بيروت الطبعة الأولى عام ١٩٧٤م).

١٣ — د. مهدى علام : المجمعيون فى خمسين عاما (منشورات مجمع اللغة العربية - القاهرة عام ١٩٨٦).

ثانيا : صحف ودوريات :

١ — جريدة الجزيرة : (السعودية) العدد ٤٩٤٢ بتاريخ ١٠/٤/١٩٨٦م

٢ — مجلة الثقافة : (مصر) لجنة التأليف والترجمة والنشر إعداد متفرقة من السنة التاسعة عام ١٩٤٧م.

٣ — مجلة العربى : (الكويت) العدد ١٦٩ ديسمبر عام ١٩٧٢م.

٤ — مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) المجلد الرابع من الجزء الثانى عام ١٩٣٩م.

٥ — مجلة كلية الآداب (جامعة الاسكندية) المجلد الأول مايو عام ١٩٤٣م.

٦ — مجلة كلية الآداب (جامعة الاسكندرية) المجلد الثانى عام ١٩٤٤م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner